ثقافة العنف

ينبغي أن نقرر أولاً، أن ثقافة العنف ميدان متسع الأرجاء، مظلم الأركان والجنبات، فهناك حوافز تقليدية للإجرام، فالسارق يسرق ليكسب مالاً، وفي سبيله يعتدي على الأنفس، ومن يعتدي على الأبضاع، لإشباع الشهوات بطرق غير مشروعة.

وفي سبيل جمع ثروة، يقوم ذوو النفوس الشريرة بتكوين عصابات للجريمة المنظمة، "المافيا" التي نشأت أولاً كتنظيمات سرية في صقلية بإيطاليا، هدفها تنفيذ العدالة بنفسها، ومنع القضاء الرسمي من ممارسة الحكم، إلا أنها تطورت لتصبح جمعيات من المجرمين ذوي السوابق، الذين يشكلون عصابات للجريمة، كالاتجار بالمخدرات، أو التجارة بالأطفال، أو بالأعضاء البشرية، سعياً وراء جمع المال، بأي وسيلة.

لكن هناك حوافز عقدية، وإيديولوجية، تدفع أصحابها إلى القيام بأعمال عنف، قد تفوق بكثير ما يقوم به اللصوص، الذين يبحثون عن كسب المال الحرام.

إن الحوافز العقدية تجسدت في هذا العصر، في تيارات القومية، واليسارية، والليبرالية الغربية، وتيارات الإحياء الديني،

obeikandi.com

وقد أشرنا إلى أمثلة لهذه التيارات، في المقدمة التاريخية، إنها تيارات لا يمكن لمن يتعاطى مع إشكالية سياسية الأمن إلا أن يكون واعياً بإمكانتها القائمة، أو المحتملة، في تحريك الأوضاع.

وهذه التيارات التي حملت السلاح طيلة القرن الماضي، وتواجهت ولا تزال في حروب دولية، وثورات داخلية، قد تخبو جذوة تيار منها، أو تلحق به هزيمة مؤقتة، ويلمع نجم تيار لظروف مواتية، سواء كانت الظروف انتصاراً، وقد تكون الظروف المواتية قهراً و قسراً.

إن الطريقة التي يصبح بها التيار الفكري تياراً حاداً، لا يمكن أن نضبطها، إنها طريقة معقدة، تعقيد حياة الإنسان، ونوازعه، وحوافزه، ودوافعه، وبيئته، ومحيطه.

وهي تيارات، لا تشكل شذوذاً، في طبيعة الإنسان، لكنها قد تصبح ضارة فقط، عندما تكون حادة، لتكون أساساً للعنف، وحافزاً عليه، في فترة من فترات التاريخ.

إن هذه التوجهات الفكرية، عندما تتجاوز حدها، لتكون تياراً حاداً، يعبر عن نفسه بالعنف، ويلغي وجود الآخر، يحكم عليها بأنها ضارة، وليست في صالح الإنسان؛ إذ أصبحت تشكل خطراً على المجتمع، تنطبق عليها القاعدة الفقهية التي تقول:"الشيء إذا خرج عن حده انقلب على ضده".

obeikandi.com

وفي العالم الإسلامي بالذات، فإن الصحوة الدينية ظلت عنواناً مشتركاً لكل الدعوات، الجهادية، والتجديدية، التي واجهت الاستعمار الغربي للديار الإسلامية، منذ القرن التاسع عشر حتى خمسينيات هذا القرن، وقد واجهت الصحوةُ الإسلامية الشيوعيةَ، حقبة من الزمن في مناطق من العالم، إلا أن الصحوة خرجت من عباءتها تيارات متطرفة، تتخذ من التكفير مذهباً، ومن العنف وسيلة، وأوقعت أضراراً فادحة بالأصدقاء قبل الأعداء، فشوهت صورة الصحوة، وقدمت ذريعة مثالية لأعداء الإسلام، ليهاجموا الدين جملة وتفصيلاً، وليضربوه في الصميم.

لقد أعادت مقولات الخوارج، وهي تلبس مسوح الإسلام، وترفع شعار الجهاد.

وإنِّ قلة الفقه في الشريعة نصوصاً ومقاصد، وعدم فقه الواقع، أوقعها في متاهات التكفير والتضليل، ومحاكمة المسلمين، اعتماداً على مرجعية، سمحت لنفسها بالحكم، والفتوى، في أخطر القضايا، وهي قضايا الدماء والأموال والأعراض.

وهكذا قامت أبرز هذه التيارات، المتشددة، فأفسدت، وأعادت الفتنة جذعة، وروجت لآراء الخوارج من جديد، تارة تحت عنوان إعادة الخلافة، وإهمال الأخلاق والتربية.

obeikandl.com

ومن أخطر هذه التيارات، تيار التكفير كفَّر الحكام، وكفَّر العلماء؛ لأنهم لم يكفروهم.

إن هذه التيارات، بالإضافة إلى ثقافة العنف التي تروجها وسائل الإعلام، التي تذيع أسرار القرية الكونية، حتى غدت بلا أسرار، ولا حواجز.

فالإعلام أصبح مقدمة، ونتيجة، ووسيلة، وغاية، لا يوجه الأفكار فقط، بل يصوغ العقول. فأخبار الجرائم، وعصابات الإجرام، مع الرد والتكرار، تعدي الأصحاء، وتنكس الأسوياء، تتفنن في عرض النزاعات، مما يمثل تحريضاً، فما ينشب نزاع حتى تصنف أطرافه، ليدفع الإعلام، لكل منهم لقباً، يدافع عنه، وهكذا تذكي الصحافة، نار الفتنة، بإيعازها الماكر، تؤججها بالكلمة المسمومة، والعبارة المحمومة، وقديماً قيل: إن الحرب أولها الكلام.

وبالنسبة للإرهاب، الحالي في العالم الإسلامي، فإن سبب الأسباب، وأس الأساس، هو الفكر المشوه، والثقافة المألوسة، المأزومة، والفهم المغلوط للإسلام، وأريد أن أشدد، وأؤكد، على أن الأمر يتعلق بثقافة معينة؛ لأن النغمة السائدة، واللغة الوافدة، ترمي إلى التعميم، لتعلق الأمر بعنق الإسلام، بأصوله، وفروعه، أو

على أقل تقدير لترمي بها مذهباً معيناً، ليُصبح متهماً جملة وتفصيلاً.

ولا يعدو الأمر، أن يكون فهماً خاطئاً، وتصوراً منحرفاً، لأفراد، ومجموعة، لا يمثلون السواد الأعظم، ولا الرأي المعتمد.

إن اعتماد أسلوب التعميم، يُعتم الرؤية، ويعقد الحل، بالإضافة إلى أنه مجانب للصواب، ومجاف للحقائق، ويمكن أن تعتبر بصفة عامة، أن الثقافة المأزومة، المشار إليها، تتميز بضيق الأفق، وعدم الاكتراث لرأي الآخر، والانغلاق الفكري، والتعصب، وعدم قبول الاختلاف، والحرفية في التفسير، وغياب فقه المقاصد، واختلال ميزان المصالح والمفاسد، مما نشأ عنه غلو في قضايا معينة، هي مفتاح شخصية الإرهاب، وقَنسُ أسسه، وجذر جذوره وهي: تكفير الحاكم، وفي أحسن الأحوال الإفتيات عليه، واعتباره غير موجود شرعاً، وأحياناً تكفير المجتمع بأسره، مع ما ينشأ عن هذا الموقف من استباحة الدماء، والأموال، سواء كانت دماء مسلمين، أو معاهدين مسالمين.

وانتحال صلاحيات الحاكم، عن طريق بيعة أمير المجموعة، حيث يقرر الحرب، والسلام، والجهاد، والهدنة، على أسس مفاهيم مغلوطة: - للجهاد - والولاء والبراء.